الشر و المعاناة في "العناية الإلهية" لسينيكا و"زهرة الصحراء" لليوباردي دراسة تحليلية مقارنة

د.أنور بهنسي محمد

كلية اللغات و الترجمة جامعة الأزهر

"لماذا تحدث محن ما للرجال الطيبين مع وجود العناية الإلهية"[1]

لوكيوس انيوس سينيكا

لم يدرك سينيكا مطلقا أن حياته ستكون مليئة بالمعاناة و الآلام و الشرور، و لم يتخيل هذا الفيلسوف المنحدر من أسرة إسبانية ميسورة الحال[2] أن مصيره سيرتبط برجالات الحكم في روما، هذا الارتباط الذي جلب عليه كثير من الآلام و المعاناة و الشرور حتى أنهي حياته بالانتحار. قد يتعلق الأمر بتلك العلاقة التي نشأت من التواصل الطبيعي بين الفكر و السياسة، أو بالأحرى بين الفكر و السلطة التي لم يكن سينيكا يوما علي وفاق معها رغم وجوده الدائم في خضم الأحداث[3]، فقد كان سينيكا معلم و مربي و مستشار للأباطرة الرومان، بداية في عهد "كاليجولا"، ثم جاء الإمبراطور "كلاوديوس" عام ٤١م و اتهم سينيكا بتهمة شبهة الزنا و نفاه إلي جزيرة "كوريسيكا"، و عاد سينبكا من منفاه في عهد نيرون عام ٤٩م، و لكن توترت العلاقة مع نيرون حتى اتهمه بالخيانة و أجبره علي أن ينهي حياته بنفسه عام ٦٥م.

لكن مسألة إجبار سينيكا علي الانتحار تعد رواية تخيم عليها ظلال الشك، لأن المدقق في أعمال سينيكا لا يجد ما يشير إلي تلك المسألة، بل يلاحظ الشخصية المتناقضة لسينيكا تلك الشخصية ذات الوجهين المتناقضين التي تعتبر من أكثر الشخصيات تعرضا للاختبارات الحياتية في العالم القديم. و من ثم يُعد سينيكا مثالا للتناقض الشديد في المشاعر المتأرجحة بين الحب و الكره، و تظهر هذه التركيبة المعقدة من المشاعر واضحة لمن يقرأ أعمال الفيلسوف سينيكا حيث يلمس صور

التناقض بين ذلك الذي يكتبه الفيلسوف و ذلك الذي يفعله، بين التعاليم العميقة التي ينشرها في لغة براقة و بين الوقائع و الأحداث التي يمر بها في حياته الخاصة، كمثال قضية شبهة الزنا الذي أُتهم به من قبل الإمبراطور كلاوديوس، أو مشاركته لنيرون عندما رتب لبعض الجرائم، أو رواية اتهامه في تدبير مؤامرة لقتل نيرون. لكن الجانب الأخر المدهش في حياة سينيكا يتمثل في ضعف اختياراته و هجره لمتع الحياة، تلك الحياة التي يُظهر خبرته الواسعة بها، و نشره لتعاليم و مفاهيم فلسفية سامية[٤] جديرة بالتقدير أسست فيما بعد لفلسفة المستقبل الذي بدأ مع انتشار المسيحية[٥].

إذن ثقافة الانتحار و التخلص من الحياة لم تكن بعيدة عن خيال الفيلسوف، بل وردت في أعماله علي أنها منهج جدير بالاهتمام، و لهذا المنهج مبرراته في فكر سينيكا، كالهروب من الحياة التي يسودها الشر و المعاناة، و يظهر هذا جليا في النص التالي:

Quae, ut scis, non semper retinenda est: non enim vivere bonum est, sed bene est.

Itaque sapiens vivet quantum debet, non quantum potest. (5) Videbit ubi victurus sit, cum quibus, quomodo, quid acturus. Cogitat simper qualia vita, non quanta sit. Si multa occurrunt molesta et tranquillitatem turbantia, emittit se; nec hoc tantum in necessitate ultima facit, sed cum primum illi coepit suspecta esse fortuna, diligenter circumspicit numquid illic desinendum sit. Nihil existimat sua referre, faciat finem an accipiat, tardius fiat an citius: non tamquam de magno detrimento timet; nemo multum ex stilicidio potest perdere. (6) Citius mori aut tardius ad rem non pertinet, bene mori aut male ad rem pertinet; bene autem mori est effugere male vivendi periculum.[6]

"ليس دائما، أنت تعرف، أن تكون الحياة مُصانة: لأن الخير لا ينحصر في الحياة، لكن الخير أن نحيا في أحسن حال.

هكذا يعيش العاقل كما يجب، و ليس كما يستطيع، و يأخذ في الاعتبار أين يعيش، و مع من يعيش و بأي طريقة، و أي نشاط

ينجز. انه يحرص دائما علي جودة الحياة و ليس علي طولها، فإذا اعترضته المحن، و هي كثيرة، و كدرت هدوءه، فليحرر نفسه، و لا ينتظر أن يجد نفسه في الضيق: و لا يبدأ بمجرد أن يشك في القدر، و يعتقد جديا أنها ليست اللحظة للخلاص. فليس من المهم أن نبحث عن الموت أو الترحيب به، لنموت قبل الأوان أو بعده: فلا يخشى الموت كأنه ضررا جسيم، فالانتحار لا يسبب لأحد خسارة عظيمة. و لا يهم الموت سريعا أو متأخرا، لكن المهم أن يكون الموت علي خير أو شر، فالموت علي خير يعني الهروب من خطر الحياة علي الشر."

يُظهر النص نظرية تبريرية للانتحار، و أيضا تكريس لقيمة الحياة الفعالة الإيجابية: فماذا تعني الحياة للرجل الحكيم؟ تعني حياة مفيدة عادلة يستطيع الرجل خلالها أن ينتج و يثمر دون قهر محققا ذاته بكرامة متجاوزا للصعاب بشجاعة و مقدرة، و إن لم تكن هكذا فهي حياة الشر ينبغي علي العاقل الهروب منها.

و عندما نتأمل عمل سينيكا عن"العناية الإلهية" De providentia يتبين لنا أن الفيلسوف لا ينوي و لا يفكر في إظهار مسألة وجود الله أو وجود العناية الإلهية التي يقتنع بوجودها، لكنه يحاول أن يقدم إجابة للسؤال الذي طرحه هو نفسه مخاطبا لوكيليوس[٧]:

Quaesisti a me, Lucili, quid ita, si providentia mundus regeretur, multa bonis viris mala acciderent.[8]

"أنت تسألني، يا لوكيليوس، لماذا تحدث شرور كثيرة للرجال الطيبين مع أن الكون يُدار بالعناية الإلهية."

هكذا، مع هذا الطرح الاستفهامي الهادئ الذي يُعد أقدم سؤال في الكون يضع الإنسان في حالة من الحيرة[9]، يبدأ سينيكا حواره الموجز عن "العناية الإلهية" متمسكا بالمنحني الأدبي في حواره نحو المعاناة التي في ظاهرها يكمن الشر و في باطنها خيرا كثير لأنها طبقا لمفهوم الفيلسوف بمثابة اختبار من الله للإنسان، فالشر الحقيقي هو معارضة الإرادة الإلهية.

فقد تمسك سينيكا بأهداب "الحكمة" بمعني معرفة الوجود الحق و إدراك طبيعة الأشياء و القوانين القاسية التي تحكم الحياة، ثم يتشكل السلوك الإنساني بحسبها، مع

العناية بتربية ذاتية قوية لا تهزمها الأحداث، بل تقف ثابتة متوازية مع نفسها، و ذلك يكون بتحرير النفس من الشهوات، و بالاستغناء الذاتي، بحيث يكون الإنسان كونا صغيرا حقيقيا يقف أمام "الكون الكبير" سيدا في نفسه، حتى يصير في حالة من عدم التأثر و قلة الاكتراث بالمصائب و المحن، حتى الموت لا يلقي له بال، و هذا موقف الفلاسفة الرواقيين، و سينيكا كان من أشد المناصرين لهذه الفلسفة[10].

تشبث الفيلسوف الرواقي بالحكمة و الشجاعة كان ضروريا لدفع شرور عصره، و دفاعه المستميت عن "وجود العناية الإلهية" لم يأتي من أجل الدفاع عن الآلهة، أو من أجل تقديم نفسه كمحامي عنهم، لكن المسألة كما يقر هو تحتاج إلي شرح و إيضاح أكثر مما هو متوقع:

Hoc commodius in contextu operis redderetur, cum praeesse universis providentiam probaremus et interesse nobis deum; sed, quoniam a tot particulam revelli placet et unam contradictionem, manente lite integra, solvere, faciam rem non difficilem: causam deorum agam.[11]

" من الممكن أن يكون ذلك معروضا أفضل من خلال دراسة مستفيضة، عندما نريد أن نظهر أن العناية الإلهية تهيمن علي جميع الأشياء، و أن الإله يهتم بنا، و لكن حيث أنني قررت أن أستخرج من المضمون العام جزءا صغيرا، و أحل تناقضا واحدا فقط، تاركا الجدل (في مكمنه) فإنني سوف أعمل عملا ليس سهلا: سوف أُدافع عن قضية الآلهة."

إذن المحور الرئيسي في دفاع سينيكا عن وجود العناية الإلهية يتحدد في تركيزه علي أن هناك نظام و قانون أبدي سائد في الكون ينظم الأحداث و الوقائع الظاهرة و غير الظاهرة، و هذا العالم لا يمكن أن يكون بلا حماية و عناية، فمن وراء الصورة الشاذة المبينة للظواهر الطبيعية يكمن القانون الصارم المرتبط بالمصادفة، و الذي يساعد علي التبصير العقلاني علي وجود الحقيقة، بل و يحفظها في حالاتها الطبيعية. و من هذا المنطلق يؤيد سينيكا بشكل خاص العقيدة التقليدية المرتبطة بالكون العقلاني، أعني: العناية الإلهية، القدر، إنها أشياء مصاغة للدلالة علي الاستشعار بوجود الله، و سموه و رفعته و حلوله في كل الأماكن، و يعمم هذا

علي أي موقف متعلق بمركزية الكون، فتوارد الدوافع التوحيدية العديدة الموجودة داخل هذا الكون لا تؤثر في إدراك الله للحقيقة.[١٢]

و من ثم فالشيء الثابت المؤكد عند سينيكا و الذي لا ينكره عاقل يتبلور في كون الحقيقة فضيلة طيبة ذات معني سامي، و من هنا يبرز دائما السؤال: لماذا تحدث المحن للشرفاء، بينما الأفاقين يغصون في الترف و ينعمون بالعافية؟ و هذه كانت مشكلة لوكيليوس الذي خصه سينيكا بهذا الحوار، و الذي لم يكن يشك في وجود العناية الإلهية و لكنه كان يتحسر علي حاله:

Suo ista tempori reserventur, eo quidem magis quod tu non dubitas de providential sed quereris.[13]

"هذه الظواهر قد كانت تتواجد في زمن ملائم، و خاصة لأنك لم تشك في وجود العناية الإلهية، لكنك تئن (تتحسر علي حالك)"

هذا الابتلاء الذي يصوره سينيكا علي أنه اختبار لإرادة الإنسان و تدريب لقوته و عزمه، لا ينزل إلا بالأقوياء الذين يتصفون بالشجاعة، و من هنا تصبح المعاناة حافزا الأخيار لكي تقوي عزائمهم، و يصبح وجود الشر دافع يدفع الشجعان نحو التقدم لكي يضعهم في مكان الصدارة من المجتمع، ويصور سينيكا تلك المعاني في هذه الفقرة:

..... tantum superne deiectorum imbrium, tanta medicatorum uis fontium non mutant saporem maris, ne remittunt quidem, ita aduersarum impetus rerum uiri fortis non uertit animum: manet in statu et quidquid euenit in suum colorem trahit; est enim omnibus externis potentior. 2. Nec hoc dico, non sentit illa, sed uincit, et alioqui quietus placidusque contra incurrentia attollitur. Omnia aduersa exercitationes putat. Quis autem, uir modo et erectus ad honesta, non est laboris adpetens iusti et ad officia cum periculo promptus? Cui non industrio otium poena est?[14]

"..... هكذا الأنهار الكثيرة المنحدرة من أعلي، و الأمطار الغزيرة المنهمرة من السماء، لا تغير ملوحة البحر، بل بالأحري لا تزيلها، هكذا هجوم المحن لا يؤثر علي عقل الرجل القوي، بل يظل ثابتا في موضعه، راسخا في معتقداته، مطوعا الإحداث لصالحه، فلا

تثنيه الإحداث، لأنه يمتلك قوة عظمي تفوق كل من حوله، لا أقول انه قد يكون جافا مع الإحداث، بل أقول أنه ينتصر عليها، حتى إذا كانت عادته الهدوء و المسالمة فعندما تهاجمه تلك النواكب يعرف كيف ينهض لمقاومتها و قمعها. المحن بالنسبة له ليس لها سبيل أخر أو هدف أخر غير اختبار شجاعته. و الرجل الجدير بهذا الاسم (الشجاعة) يكون منصرف تماما نحو الأمانة، و لا يطمع لأن يجد الأمانة هكذا جزافا، و لا يطمع أن يضع نفسه حقا في التجربة، أو أن لا يكون مستعدا للقيام بواجبه و هو مدركا للخطر؟ هكذا يكون الكسل معاناة لمن يولد في خضم الحدث؟"

من الواضح أن مسألة هجوم المحن علي الأخيار تتردد كثيرا في جميع أعمال سينيكا، و لا تقتصر اطلاقا علي عمله الذي نحن بصدد تحليله في هذه الورقة "العناية الإلهية"، فهذا المفهوم يعود إلي التراث الفلسفي الرواقي الذي تغلغل في وجدان الفيلسوف الروماني، فالشر و المحن و الآلام و المعاناة طبقا لسينيكا ما هي إلا اختبارات للرجل القوي، و إن الرجل القوي الأمين يتفاعل معها بثبات، ويعتبرها تدريبات يخضع لها عن طيب خاطر، و هذه التدريبات لا تختلف كثيرا عن التدريبات التي يتلقاها الرياضيين و الجنود و المصارعين:

Athletas uidemus, quibus uirium cura est, cum fortissimis quibusque confligere et exigere ab iis per quos certamini praeparantur ut totis contra ipsos uiribus utantur; caedi se uexarique patiuntur et, si non inueniunt singulos pares, pluribus simul obiciuntur.[15]

"أنظر الرياضيون الذين يعتنون بقوتهم، إنهم يتصارعون مع خصوم أكثر منهم بسالة، بل إنهم إثناء التدريب يطلبون و يتطلعون من المدربين الذين يعدونهم لخوض المسابقة أن يستنفذوا كل قواهم تماما و يبذلوا كل طاقتهم، فهم يتلقوا ضربات وراء ضربات، فإذا لم يجدوا عل الأقل شخص ما ندا لهم، فإنهم يتصارعون مع أكثر من خصم في وقت واحد."

و يبرر سينيكا رأيه في حتمية و جود الخصم المنافس حيث يقول في الفقرة

التالية مباشرة:

Marcet sine aduersario uirtus.[16]

"لأنه بدون وجود الخصم تخور الشجاعة."

و يضرب المثل بالآباء الاسبرطيين الذين كانوا قساة مع أبنائهم حتى جعلوهم يكدون و يعرقون، و أيضا يبكون، هكذا الله يشبه الأب الذي يحب أبناءه بشدة و لكنه يقول: فليخضعوا للتعب و الآلام و الخسائر لأنهم بهذا يكسبون القوة الحقيقية:

Patrium deus habet aduersus bonos uiros animum et illos fortiter amat et "operibus, inquit, doloribus damnis exagitentur, ut uerum colligant robur."[17]

"الله تجاه الأخيار له روح الأب، يحبهم، لكن بدون وهن أو ليونة، و يقول: فليخضعوا للمتاعب، للآلام، للنواكب، فإنها تجعلهم دائما يقظين، هكذا يكسبون قوة أصيلة حقيقية."

هذا المفهوم التربوي الذي يصقل الشجاعة في عقول الأبناء قد رمز إليه سينيكا في صورة المحارب أو الرياضي الأصيل الذي يفتخر بجروحه و يظهر الدم الذي يتساقط من الدرع، لكونه يدرك أن الشجاعة من شأنها الحرص علي ملاحقة الأخطار و خوضها بفرح و بهجة، و أن هذا المحارب يفكر في هدفه و غايته دون أدني تفكير في الأضرار التي يمكن أن تلحق به:

Gaudent, inquam, magni uiri aliquando rebus aduersis, non aliter quam fortes milites bello.

……

……Auida est periculi uirtus et quo tendat, non quid passura sit cogitat, quoniam etiam quod passura est gloriae pars est. Militares uiri gloriantur uulneribus, laeti fluentem meliori casu sanguinem ostentant: idem licet fecerint qui integri reuertuntur ex acie, magis spectatur qui saucius redit.[18]

" أحيانا الرجال الأقوياء يبتهجون بالمحن، كما (يبتهج) الجنود البواسل بالمعركة ..... الشجاع يحرص علي ملاحقة الأخطار، و لا يفكر في الضرر المحدق، بل (يفكر) في

الهدف، لأن الشجاع يعرف أن المعاناة جزأ من العظمة (الشهرة). فالجنود البواسل يكونون فخورين بجراحهم، و يعرضون (للعيان) بفخر و غبطة الدم الذي يتساقط من الدرع، أيضا من يخرج سليما من المعركة و قد أدي نفس المهام ينال عظيم إعجابنا كالذي يناله من يعود مجروح."

علي الجانب الأخر يوجد أيضا الجبناء هؤلاء الذين لا يعرفون قوة التحمل و الصبر و الجلد، فهم يئنون و يصرخون من أتفه الأزمات، و ينهرون مع أول الضربات، و رغم ذلك لا يعيشون علي هامش الحياة، بل يحيون حياة مليئة بالترف و اليسر، و ينالون من متع الحياة أكثر كثيرا مما يناله الأقوياء، و الحقيقة أنهم ينقصهم الذوق يرضخون تحت وطئه الكسل و الخمول، منغمسين في الخداع و الأنانية.

علي النقيض من هؤلاء الجبناء نجد إن الذين يستدعون إلي حمل السلاح و إلي بذل الجهد و العطاء هم الأخيار الأفاضل labor optimos citat حيث إنهم الرجال الذين يسهرون علي حراسة المعسكرات و يحاربون بالأسلحة معرضين أنفسهم للجراح و ربما للقتل.

الإشكالية التي يطرحها دائما الفيلسوف الروماني أمام العيان و يعتبرها نواة موضوعه تتبلور في سؤاله الدءوب: لماذا تحدث المحن للأخيار رغم وجود العناية الإلهية؟ و في هذا المضمار تُلاحظ الافتراضات الصريحة لسينيكا في الباب الأول الفقرة الثالثة و ما بعدها من عمله "عن العناية الإلهية"، إذن الأمر لا يتعلق بمعاملة بسيطة متصلة بالشر كالأشياء العادية، أو متصلة بالعناية الإلهية بقدر اتصاله بمسألة ظهور الظلم في النظام الكوني الطبيعي، و من ثم فالدراسة بمجملها تنصب علي مبحث أخلاقي، و ليس أطلاقا علي أمور متعلقة بالغيبيات أو الأشياء التي وراء الطبيعة.[١٩]

يطرح الفيلسوف الروماني إجابة للسؤال، بل بالأحري تبريرا لما يقع للأخيار من محن و كوارث: المعاناة ما هي إلا اختبار من الله يُنزله علينا عقابا لنا لأن الفضيلة و الشجاعة التي ترتبط بالإنسان توجد و تقوي مع وجود هذه المعاناة، و من ثم يتواجد الخير، و خلاف ذلك تكون الرزيلة فقط هي الشر، و الأمور الباقية ما هي إلا صغائر لا يُعتد بها.

Adice nunc quod pro omnibus est optimum quemque, ut ita dicam, militare et edere operas. Hoc est propositum deo quod sapienti uiro, ostendere haec quae uulgus adpetit, quae reformidat, nec bona esse nec mala; apparebit autem bona esse, si illa non nisi bonis uiris tribuerit, et mala esse, si tantum malis inrogauerit.[20]

" الآن تضيف أنه لصالح الجميع أن يتواجد الخير، هكذا القول، لأن (الخير يظل) تحت الأسلحة و ينشر خدماتها. فالله يقرر ذلك الذي يقرره العاقل: يبين أن الأمور التي ترغبها الناس و التي تخشاها ليست خيرات و لا شرور؛ أنها ستبدو خيرات إذا جعلها تحدث فقط للأخيار، و (ستبدو) شرور إذا أنزلها فقط عقابا علي الأشرار" [٢١]

إذن، سينيكا لا ينئ بنفسه عن التراث التعليمي التقليدي الذي كان سائدا قبله، فهو يبرز لحظة الصراع في العلاقة بين الإنسان و المعاناة في هيئة رومانية مصورا هذه اللحظة هكذا: تخيل محدد لقانون تنافسي محكم، يحض علي الانغماس في العمل، علي مقارعة الأحداث، علي الصراع الدامي أيضا من أجل الحياة، و هذا ينم عن ثنائية ثابتة بين الإنسان أو بالأحري بين روحه الجامحة و الحقيقة التي تظهر أحيانا ظالمة و متغيرة [٢٢]، لكنها لا تتوقف إطلاقا لحظة واحدة عن كونها خيرة و تسير وفق نظام محكم. الشر هو علي عكس المفهوم الظاهر حالة أخلاقية للإنسان، و يعتبر المنافس و الخصم الضروري غير المستبعد من سباق الحياة، و من الطبيعي أن تولد المعاناة من الشر و تجعل الحياة تدور بين الحيرة و التردد، و من هنا يتعرض الإنسان أحيانا إلي حالة من اليأس و القنوط (سينيكا نفسه كان حتى سن الصبا في حالة صحية رديئة)، لذا يجب علي الإنسان الشجاع أن يتحمل الشرور و يهزم الآلام:

"At multa incidunt tristia horrenda, dura toleratu." Quia non poteram uos istis subducere, animos uestros aduersus omnia armaui: ferte fortiter. Hoc est quo deum antecedatis: ille extra patientiam malorum est, uos supra patientiam. Contemnite paupertatem: nemo tam pauper uiuit quam natus est. Contemnite dolorem: aut soluetur aut soluet. Contemnite mortem: quae uos aut finit aut transfert. Contemnite fortunam: nullum illi telum quo feriret animum dedi.[23]

" لكن تقع أحداث كثيرة حزينة، فظيعة، صعبة التحمل"، " منذ اللحظة التي لم أستطيع أن أخلصكم منها، فإنني حصنت (قويت) أرواحكم ضد كل شيء. واجهوها بشجاعة. هذا هو ذلك الذي تتفوقون فيه علي الله: فالله خارج نطاق تحمل الشرور، و أنتم في (هذا الأمر) أعلي (أي تحمل الشرور). لا تعنوا أنفسكم بالفقر: فلا أحد يحيا هكذا فقير كما ولد. لا تعنوا أنفسكم بالألم: فأم يأتي منهزما أو سيهزمكم. لا تعنوا أنفسكم بالموت: فإنه يزيلكم أو ينقلكم إلي مكان أخر. لا تعنوا أنفسكم بالحظ: فإنني لم أعطي أي أحد سلاح به يجرح روحكم.

ينتقل سينيكا بثورية متعجرفة ليبين التحدي الصارخ لقوي الطبيعة، و علي الإنسان أن يقبل التحدي بشجاعة و صبر علي البلاء، فإن لم يستطيع المقاومة و الجهاد فهل يمكنه الهروب:

Omne tempus, omnis uos locus doceat quam facile sit renuntiare naturae et munus illi suum inpingere.[24]

" كل لحظة، كل مكان يعلمكم كم يكون سهلا التخلي عن الطبيعة و إلقاء هبتها خلف ظهورنا."

و هذا التحدي لقوي الطبيعة لا ينم عن عدم الاعتقاد بتلك القوي أو عدم الثقة، بل يضمر المعني المستتر و هو التسليم بهذه القوي و مواجهتها بشجاعة لأنه ليس هناك مفر غير المواجهة الشجاعة و خوض الحياة بكل عزم و إصرار، فماذا لو استسلمنا؟ أيكون الموت سهل؟:

Ante omnia caui ne quis uos teneret inuitos; patet exitus: si pugnare non uultis, licet fugere. Ideo ex omnibus rebus quas esse uobis necessarias uolui nihil feci facilius quam mori.[25]

" قبل كل شيء فإنني دبرت أن لا أحد يقف عائقا ضد إرادتكم: الباب مفتوح. لو لم تريدوا الجهاد، أتستطيعون الهروب. لذا بين كل الأمور التي أردت أن تكون محتومة بالنسبة لكم لم أجعل شيئا أكثر يُسرا من الموت."

علي أية حال، التناقض الشديد بين العقلانية الكونية و بين المعاناة التي تصيب الإنسان الأمين نجد أن الخير ظاهر جدا للعيان، فهو تناقض ملفت يبعث علي الدهشة و الاستغراب، ومن ثم يسوق سينيكا مبررات لهذه الإشكالية التي أصبحت هاجس

يضرب ليل نهار عقول المظلومين، حيث يأتي التبرير فلسفي - مقتبسا من الفيلسوف اليوناني ديمتيريوس الكلبي[٢٦] - يُسكن الآلام و لا يداوي الجراح الغائرة:

Inter multa magnifica Demetri nostri et haec uox est, a qua recens sum; sonat adhuc et uibrat in auribus meis: "nihil" inquit "mihi uidetur infelicius eo cui nihil umquam euenit aduersi."[27]

" من بين الأقوال العظيمة الكثيرة لصديقنا ديميتريوس، هناك أيضا هذا (القول) الذي سمعته منذ قليل و مازال حاضرا يرن في أذني: "لا شيء يبدو لي أكثر تعاسة من ذلك الذي لم تحدث له أبدا محنة."

و يؤكد سينيكا علي ما أقتبسه من أقوال ديميتريوس مبينا أن الحظ السيئ ما هو إلا دافع يوقظ قوي الروح الإنسانية الوثابة و يدفعها نحو التجريب، نحو الإبداع، نحو إعادة تشكيل نفسها بعد العثرات التي تقابلها في الحياة و يدفعها إليه سوء الحظ أو الأقدار التي لا نراها و لا نتوقعها رغم أنها تحوطنا من جميع الجوانب.

هذه الأقدار تسوق الخير و الشر للجميع، فهي تدق باب العامة و أيضا الطبقات الأخرى من بني الإنسان، و علي الإنسان أن يتواءم مع طبيعة هذه الأقدار:

Prosperae res et in plebem ac uilia ingenia deueniunt; at calamitates terroresque mortalium sub iugum mittere proprium magni uiri est. Semper uero esse felicem et sine morsu animi transire uitam ignorare est rerum naturae alteram partem.[28]

" ضع في الاعتبار أن الأحداث الطيبة تحدث أيضا للعامة و الأشخاص الموهوبين المهانين؛ لكن الرجل عظيم القدر يكون مهيمنا علي المحن و المخاوف المهلكة: حقا أنه دائما سعيد، فقضاء الحياة في مهانة يعني جهل الوجه الأخر للطبيعة."

الكوارث كما يري سينيكا لا تميز بين الناس إذا كانت عامة، لكن إذا نزلت علي شخصا بعينه أصقلته و شحذت همته، فعبر المحن تقوي الحواس و تشتد العزائم مانحة الفرصة للفضيلة لكي تسود و للشجاعة أن تواجه مخاطر الحياة فيصير المنكوب فاضلا شجاع، و الرجل المحنك و المزود بخبرات الحياة يُدرك جيد كيف يواجه الشرور و كيف يتحمل المعاناة و الآلام و هو هادئ النفس مطمئن القلب

شجاع:

Magis urgent saeua inexpertos, graue est tenerae ceruici iugum; ad suspicionem uulneris tiro pallescit, audacter ueteranus cruorem suum spectat, qui scit se saepe uicisse post sanguinem.[29]

" الأحداث غير المواتية تؤلم بشده هؤلاء الذين لم يخوضوا أبدا التجربة، فالقيد يكون مرهق للرقبة الناعمة؛ و المستجد (في التجربة) يمتقع لونه بمجرد التفكير في الجرح، بينما المحنك يري بشجاعة دمه، حيث أنه يعرف أنه غالبا ما يجني النصر بعد (بذل) الدم."

هكذا، يحثُ سينيكا الأخيار علي الهروب من الحياة المريحة التي تبعث علي الكسل و البلادة و تثبط الهمة، و تحول دون المروءة، فلا تثمر إلا عن خسة و قلة عزم و جبنا ينافي أخلاق الأخيار من الرجال:

Quid mirum, si dure generosos spiritus deus temptat? numquam uirtutis molle documentum est. Verberat nos et lacerat fortuna: patiamur. Non est saeuitia, certamen est, quod <quo> saepius adierimus, fortiores erimus: solidissima corporis pars est quam frequens usus agitauit. Praebendi fortunae sumus, ut contra illam ab ipsa duremur: paulatim nos sibi pares faciet, contemptum periculorum adsiduitas periclitandi dabit.[30]

" لما الدهشة إذا وضع الله بقسوة الأرواح النبيلة تحت الاختبار؟ إظهار الشجاعة لا يكون أبدا بالشيئي السهل، فإذا ما ضربنا القدر و مزقنا فلنتحمل: أنها ليست قسوة، بل معركة، فالكم كبير للغاية و غالبا ما سنواجه الكثير و سنكون أقوياء جدا، فالجزء الأكثر صلابة في جسدنا يكون ذلك الجزء الذي وضع تحت التمرين من خلال الاستخدام المتكرر. علينا أن نعرض أنفسنا للقدر بطريقة من خلالها نكون أشداء في مواجهته (مُستمدين الشدة) منه هو نفسه: فبالتدريج سنجعل أنفسنا مساوين له، فالامتحان المستمر سيجعلنا نستخف بالإخطار."

فالصورة التي رسمها سينيكا الفيلسوف عن الشجاعة و الإصرار علي المقاومة تُعد ضرورة ملحة للرجل الذي يرغب في التحرر من الشرور حتى يصير رجلا قدوة و مثالا مميزا بالعقل و الحكمة، هذه الصورة المثالية التي ترقي بنفسها عن هجوم الأقدار و المحن، و تنجح في التغلب عليها مرتدية لباس الشجاعة و الفضيلة، فيغيب عنها الغضب ويسودها الهدوء و الطمأنينة، متملكة لناصية المقاومة و قوة التحمل و المقدرة علي الاحتفاظ بهدوئها و سكينتها، و ربما كانت هذه الصورة مكونا من مكونات العقيدة الأخلاقية الرواقية لسينيكا نفسه[٣١]، و هنا يتأكد أن هذه المعطيات الأخلاقية تتألف لردع الضرر المحدق بالإنسان: فالحكيم sapiens لا يتبنى خطط هجومية لكنه يتبنى خطط دفاعية٣٢.

لم تقتصر فلسفة المقاومة علي الإنسان كما تبين لنا سابقا في عمل سينيكا "عن العناية الإلهية"، بل قدم لنا الشاعر الإيطالي جاكومو ليوباردي نموذجا أخر رمزي للمقاومة في صورة شعرية رائعة في قصيدته المسماة "زهرة الصحراء" (La Ginestra) و التي جعل ليوباردي من هذه الزهرة الصغيرة رمزا قويا للإنسان المقاوم الشجاع، فإذا كان سينيكا قد صرح بوضوح بمدي ارتباط صفات الشجاعة و المقاومة بالإنسان الخير فإن ليوباردي قد قدم نفس الصورة لكن في إطار رمزي مستخدما زهرة الصحراء الجميلة في قوة تحملها للإخطار و نهوضها من جديد بعد البركان الجارف العاتي مثلها مثل الإنسان الذي تصقله المحن كما صوره سينيكا من قبل.

يفتتح ليوباردي قصيدته و يختتمها بتلك الصورة الرمزية المعبرة عن زهرة الصحراء هذه النبتة الجميلة التي تموت و تحيا من جديد علي الدمار الهائل، لذلك اكتسبت ذلك المعني الاستعاري المزدوج: حيث ترمز من جانب إلي عدمية الكائنات في الدورة المستمرة و السرمدية للطبيعة التي تدمر و تعيد البناء بمعزل عن إرادة البشر، و من جانب أخر لها قيمة إيجابية في تمثيلها لعملية النهوض من جديد أو الإحياء الذي لا يعد مجرد بقاء بعد حلول كارثة ما، بل هو بقاء أو نجاة تهدف إلي معالجة الجروح، إذن البقاء أو النجاة ربما يقدما شهادة علي القدرة الذاتية العميقة علي التحمل و المقاومة في الكائنات البشرية، ونجد قوة التحمل و المقاومة هذه ممثلة في زهرة الصحراء، تلك الزهرة التي تُهون بأريجها عبوس الصحراء التي دمرها

البركان، فرائحتها ليست بالقوية أو القابضة، كما أنها ليست بارزة ظاهرة بل إن صورتها و هيئتها تقدم الزهور في شكل متواضع و بسيط. لكل هذه المعاني تكون الرمز المثالي و الصورة الطيبة للروح السامية الكبيرة التي لديها القدرة علي أن تحيا من جديد و تُزهر مرة أخري بعد الكارثة.

و علاوة علي قدرة زهرة الصحراء علي البقاء علي قيد الحياة فإن هذه النبتة الضعيفة تُظهر أيضا و بوضوح المقدرة الهائلة علي التجديد و إعادة الإحياء، و هذه القدرات تُعد أيضا قدرات غريزية كامنة في الإنسان يستمدها بالأحري من الطبيعة.

صورة زهرة الصحراء تتميز بثلاثة عناصر رئيسة: التواضع، المقاومة، المواساة، و هذه هي الصورة الخيالية التي تحمل الشاعر علي تأمل واسع و مركز علي ظاهرة المقاومة و قوة التحمل الناتجة لثوران الطبيعة عبر العصور الطويلة الممتدة من قديم الأزل، و أيضا في حدود الأزمنة التاريخية القصيرة التي يعرفها الإنسان، يمكنني القول إن خيال الشاعر يدور بين الأتساع الشاسع للكون و بناءه و بين هامشية الأرض، بين ضخامة الطاقات الطبيعية و ضئالة ما يصنعه الإنسان.

من هنا يمكن اعتبار "زهرة الصحراء" شعارا رمزا للقصيدة التي في جوهرها تعبر عن أرقي انطباع لمسه الشاعر في الإنسان حيث تكمن الصفات النبيلة من قوة الإرادة و الصبر و التحمل و مواجهة الأقدار، معتبرا هذه النبتة البريئة مثالا فريدا للمواساة في الحياة، و بصورة واضحة تصبح هذه القصيدة رمزا بارزا للإنتاج الشعري الذي توج نهاية حياة ليوباردي، فجاء مزيجا بين الخيال و الحكمة التي ارتكزت إلي معرفته الناضجة بسمات الرجولة و قبوله البطولي للمعاناة التي فرضتها الأقدار علي الإنسان عبر مشوار حياته الدنيوي[٣٣]، فالرجل في مخيلة ليوباردي حتى لو كان في حالة متواضعة لكنه ذو أصل نبيل و كريم المنحدر لا يعنيه علي الإطلاق الأثرياء أو الأقوياء و لا يتقمص دور المهرج الباعث علي السخرية أمام الناس لكنه يتركهم يحكموا علي سلوكه النبيل، و لا يعتريه إطلاقا أدني خجل من فقرا أصابه أو ضعفا أو قلة حظ، و لذلك يستطيع أن يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية، و ليوباردي يعتبر نفسه من هذا الصنف من الرجال لهذا فهو يحترم الأشخاص المتواضعين البسطاء و يزدري هؤلاء المتعجرفين المتكبرين الكسالي.

يضع ليوباردي في قصيدته القوة الخارقة للطبيعة في مواجهة مع الضعف و الهشاشة، أو بمعني أخر مع العجز عند الإنسان. الطبيعة من جانبها لها القدرة علي

فعل كل شيء، و الإنسان من جانبه عليه أن يستسلم لتلك القوي الإلهية العليا، و عليه الامتثال لقراراتها التي قررتها من أجله، فتربص الطبيعة للإنسان في تباين مستمر مع وجود التكبر و الغطرسة من قبل الإنسان، ذلك التكبر الذي يبعث علي السخرية، فلا يعني هذا التكبر شيئا علي الإطلاق في مواجهة القوي الإلهية.

فالقصيدة تبدو هادئة في شكلها العام علي الرغم من كونها تقدم قوة مأسوية مريبة ممثلة في تلك المأساة التي تلحق بالإنسان جراء القوة المدمرة للبركان، لكن هذه المأساة الفظيعة و المهلكة للكائنات تأتي بطريقة ما هادئة ملطفة مع و جود زهرة الصحراء القوية التي تقاوم الدمار و تنبت علي أثره من جديد و كأنها تعيد الحياة البائدة و تجددها. إذن، موضوع القصيدة يتبلور في هذا الصراع العملاق الأبدي بين الموت و الحياة بين الدمار و إعادة البناء.

عندما نتأمل صورة زهرة الصحراء هذه النبتة الصغيرة التي مازالت قائمة حول البلدة البأسة المريعة و المدمرة جراء البركان في قصيدة ليوباردي التي تحمل اسمها نلاحظ أن الشاعر يقدم الزهرة الجميلة لكونها تبعث علي الراحة كرمز للإنسانية المتجددة دوما و التي تكتسب حكمتها من العدم و الفناء، و رغم إدراك الإنسان الجيد بهذا العدم و الفناء إلا إنه أحيانا ما يجهد نفسه لكي يدفع بعيدا كبرياءه الذي يعوق رؤيته للحقيقة الصعبة. يعبر الشاعر عن هذا المعني في أبيات شعرية رقيقة ليصف التواضع و الحكمة عند الرجل العاقل الحكيم، و قد يناسب هذه الأبيات الرائعة عنوان مثل: "موت البراءة":

E tu lenta ginestra,
che di selve odorate
queste campagne dispogliate adorni,
anche tu presto alla crudel possanza
soccomberai del sotterraneo foco.
...
E piegherai
sotto il fascio mortal non renitente
il tuo capo innocente:
ma non piegato insino allora indarno
codardamente supplicando innanzi

al futuro oppressor; ma non eretto
con forsennato orgoglio inver le stelle....
ma più saggia, ma tanto
meno inferma dell'uom quanto le frali
tue stirpi non credesti
o dal fato o da te fatte immortali.34

" و أنت يا زهرة الصحراء البطيئة
تفوح منك روائح الغابات
في هذه الأرياف المكسوة المزينة
أنت أيضا سريعا ما ستختفين بقوة غاشمة تحت نار أرضية
و ستنحنين تحت الكومة المميتة بلا مقاومة لرأسك البريئة
لكن حينئذ لن تنحنين عبثا و جبنا، بل تضرعا أمام المستقبل الظالم
و من لا يستقيم بكبريائه الطائش ليطاول النجوم
.....
لكن يا لها من حكمة و أي حكمة
لا تعتقدي إنك أقل ثباتا من الإنسان مع رقة و هشاشة جذورك
إنه القدر أو الأحداث المميتة التي اعترتك."

فهذه الصورة الشعرية المركبة تُعد شهادة حقيقية للشاعر، حيث يتحرك من خلال تصوير القوي الخارقة و القدرة الفائقة علي تحمل الآلام، و من خلال الكون و الطبيعة الأم التي ترمز للبركان المدمر الذي دفن مدينة بأكملها تحت نيرانه، و من ثم يدين الشاعر بشدة عصره:

Così ti spiacque il vero
dell'aspra sorte e del depresso lodo
che natura ci diè. Per questo il tergo
vigliaccamente rivolgesti al lume

che il fè palese: e, fuggitivo, appelli
vil chi lui segue, e solo
magnanimo colui
che sè schernendo o gli altri, astuto o folle,
fin sopra gli astri il mortal grado estolle.[35]

" هكـذا تنجلـي لـك حقيقـة القـدر الـوعر و قـرار المحلفين المتدني لما تعطينـا الطبيعـة. مـن أجـل هـذا العكس "الشؤم" تتوجهين بانكسار إلـي الضـوء الـذي ينكشـف: و هاربـة مـن الاسـتغاثات الجبانـة التـي تتـوالي، و وحيـدة تنفـردين بالنبـل، عنـدما يسـخر (الزمن) من نفسه أو من الآخرين، فمن كـان ذكيـا أو أحمقا، يدركه الموت حتـى لـو كـان فـي مرتبـة فـوق النجوم."[٣٦]

من الواضح أن الشاعر يوجه لومه إلـي العصـر و يـزداد هـذا اللـوم حـدة علـي وجه الخصوص في الأبيات ٥١ -١٥٧ و هـي الأبيـات الأكثـر جدليـة فـي القصـيدة و التي يدين فيها الشاعر العصر الحديث الذي هجر نور العقل (المذهب التنويري) الذي كان سائدا في غضون القرن السابع عشر من أجل اللجـوء إلـي رؤيـة وهميـة خادعـة للحالة الإنسانية.

إذن ليوباردي كان مخلصا لدينه الذي كان حينئـذ فـي حالـة شـديدة الـوهن[٣٧]، و يرفض المذهب الروحاني الرومانسي، و الثقـة المتفائلـة بالتقـدم، لكـن لـيس مـن أجـل العقم و التشاؤم الرجعي[٣٨]، لأنه كان مقتنعا بقدر كبير بأن الأقدار العظيمـة و التقدميـة ربما كانت مزيفة و يجب أن يؤسس العصر الجديـد مـن منطلـق حقيقـة الإنسـان و إن تلك الحقيقة تكمن في المعاناة التي تكبدها الإنسان:

Nobil natura è quella
che a sollevar s'ardisce
gli occhi mortali incontra
al comun fato,
che confessa il mal che ci fu dato in sorte,
e il basso stato e frale[39].

"إنها تلك الطبيعة النبيلة التي يملكها من عنده الشجاعة ليري بعينه رجلا فاني ينتظره القدر سواء هو بعينه أو جميع الآخرين "قدر عام" (إنه الموت) و الذي يدركه بشكل منفتح دون أدنى إنقاص للحقيقة، فالشر الذي أدركنا هو نصيب، و هكذا أيضا ضعفنا و حالتنا المتدنية."

يرفض ليوباردي المذهب المسيحي لكن لا يريد العودة إلي الآمال المتعلقة بالتنوير مؤكدا طبقا لقناعته المادية و الحسية أن العدمية و الألم نتج عنهما بشكل ساخر أبراز صورة الإنسان المتفاخر و المعتز بالخلود و التقدم غير المحدود، و رغم ذلك فهذا الإنسان مستعد دوما و في كل مناسبة أن يتضرع بشغف أمام المستقبل الظالم.

علي أي حال، قد يهتدي الإنسان فقط إلي طريق المؤاخاة عندما يتوقف عن كبرياءه الأجوف و يدرك أن حياته تصبح صعبة عندما يصارع من أجل البقاء صراعا مستمرا في ظل عدم اكتراث الطبيعة الكونية المحيطة:

Costei (la natura) chiama inimica; e incontro a
questa
congiunta esser pensando,
siccome è il vero, ed ordinata in pria,
l'umana compagnia,
tutti fra sé confederati estima
gli uomini, e tutti abbraccia
con vero amor, porgendo
valida e pronta ed aspettando aita
negli alterni perigli e nelle angosce
della guerra comune[40].

" علي أية حال، من يملك الروح النبيلة يطلق علي تلك (الطبيعة) صفة عدو، و عندما يفكر بعقلانية يري أن المجتمع الإنساني كان في البداية موحد و منظم ضد الطبيعة المعادية، و يعتبر البشر جميعا

متعاونون فيما بين بعضهم البعض ليتصافوا كأخوة
داعين أنفسهم إلي الصلاحية و المساعدة الفعالة في
وقت الأخطار[٤١]، و في أوقات الشدة (المعاناة) التي
تسببها هذه الحرب الشاملة، فكل منهم بدوره في
حالة انتظار لمساعدة حقيقية."

هذا هو مبدأ التضامن الاجتماعي[٤٢] الذي حض عليه ليوباردي في أواخر حياته، و إنه أيضا المبدأ الذي توحي به الرسالة المأخوذة من قصيدة "زهرة الصحراء"، إنه الإكليل المتوج للمذهب الإنساني عند ليوباردي، و أيضا الإكليل المتوج للأخيار في مفهوم سينيكا، حيث يلتمس السعادة الحقيقية من يقوي علي تحمل الشرور، و من يتضامن مع الأخيار ليصير خيرا. إنها اللحظة الحاسمة و نقطة الارتكاز في المشكلة الإنسانية و الشعرية عند ليوباردي، و مصاف التجربة و الحكمة العقلية عند سينيكا.

و من ثم يكمن في قصيدة ليوباردي معني الرسالة التضامنية التي تحض علي التكافل و التكامل البطولي الذي يهدف إلي مواجهة الواقع البراق، و يهدف أيضا إلي معرفة حقيقة الأخوة التي يجب أن تجمع كل من ينتسب إلي الجنس البشري حتى تصير الوسيلة الوحيدة لمواجهة قوي الشر الكامنة في الطبيعة المحيطة.

و بناء عليه يضع ليوباردي الصورة العامة للحالة الإنسانية في وصف شعري فلسفي رائع حيث يظهر وجود الظلمات و كأنها وهم خادع تفضله البشرية علي النور الحقيقي، فالبشرية قد تجد نفسها في صراع عام مع الطبيعة و تتوحد في هذه اللحظات النادرة وحدة أخوة لمجابهة الأخطار، و إن هذا المفهوم يُعد رسالة الشعر الملحمي البطولي[٤٣] التي قصدها ليوباردي في أواخر حياته، و أنها ثمرة مخاض دام أكثر من عشرة أعوام.

إذن بعد الثورة الفكرية و الأخلاقية التي ظهرت من خلال الأعمال الأخلاقية Operette morali و التي ذاعت مع بدايات عام ١٨٢٤ و صاعدا، ليوباردي كان علي قناعة تامة بما وصلت إليه الحالة الإنسانية من سلبية مطلقة، هذه الحالة التي نتج عنها أو ولدت فيما بعد ظاهرة المعاناة، سواء كانت معاناة جسدية أو روحانية، و هذه الأخيرة أعني الروحانية كانت تُحس بشيء من الملل مع أنها أكثر الأحاسيس الإنسانية نبلا.

ربما كان سبب الألم عند ليوباردي في البداية سببا فرديا لكنه سرعان ما تغير نتيجة للتشاؤم العام و أصبح مرتبطا بالجماعة و العالم من حوله، لذا نري الشاعر في قصيدته "زهرة الصحراء" يصور الإنسان الذي يعيش في الألم علي أنه ضحية لحقيقة صيغت من مادة في حالة تحول مستمر، و عليه فالألم مُدان في شتي صور الحياة الإنسانية.

أضافت التلقائية و الانسيابية في الشعر اليوباردي البعد الثالث للأحداث و الوقائع فتجسدت المثل العظمي مما أدي إلي تحقيق التوازن الثابت بين الإبداعات الفكرية العميقة و الإسترسالات الغنائية المرتجلة، و في هذا الجو المثقل بالمحن قد يتردد ما يسمي بالقنوط أو اليأس الديني، و من هنا تتوالد استفهامات كثيرة منطلقة من حالة اليأس السائدة، و قد تبدو هذه التساؤلات الحماسية الشديدة في فحوي أغنية ليلية يطلقها راعي ضال الطريق. أريد أن أقول إن الألم الشخصي للشاعر يفوق كل الحدود و يذوب في أشعاره بالسؤال عن السبب الأخير، عن السر المحير للمعاناة، عن الموت و الدمار الذي تتعرض له جميع المخلوقات[٤٤].

أن سينيكا الفيلسوف العقلاني لا يشبه ليوباردي الشاعر الرومانسي لكنهما شركاء في الألم و الإحساس بالمعاناة، و كلاهما يصور هذا الإحساس بطريقته لكن جوهر التوحد بينهما يكمن في تبنيهما لفلسفة مشتركة، و إحساسهما بالمعاناة الإنسانية. كان ليوباردي أكثر توافقا مع الأحداث الملهمة، فمعرفته القديمة بعلوم الفلك جعله يشير دائما إلي القمر هذا الرمز الأرضي، و الصحراء البركانية، كل هذه الأشياء تصاحب القلب في معراجه الشعري البارع.

إذن، المنظومة الفكرية أو الفلسفية لليوباردي لم تتأكد فقط في كونه أعظم شاعر غزلي، بل تجاوزت في قصيدته "زهرة الصحراء" إلي قدرته الفائقة في إبراز الشعر البطولي الذي يجسد بطريقة أكثر انفتاحا الدوافع البطولية لشعره، و يحرص في نفس الوقت علي أن يُضمن أشعاره كل تجربته و قناعته الفلسفية و الأخلاقية و الجمالية مؤسسا التزام شعري و مقدما لرواية جيدة و شيقة في تجسيده للقصة الأسطورية لزهرة الصحراء.[٤٥] .

و من هنا ندرك أن ليوباردي وضع الطبيعة النبيلة ممثلة في زهرة الصحراء في مقارنة مع الإنسان الخير الذي لا يبعد عيناه عن الجنس البشري حاملا لهموم البشرية مفكرا في إيجاد السبل الحقيقية و الحلول لإزالة تلك الهموم سواء بالكلمة

الحرة المخلصة أو بالفعل الشجاع، و لا يثني هذا الإنسان الخير عن هدفه النبيل أي عائق، و من ثم يتعلق بالحقيقة و الفضيلة مثل تعلقه بالحياة ذاتها.

الهوامش

١ . "…. si providentia mundus ageretur; multa bonis viris mala acciderent." Seneca, De providentia, 1, 1.

2 . عن الأصول الأسبانية لسينيكا ، راجع:

C. Marchesi, Seneca, Milano-Messina, Principato, 1944.

I. Lana, Lucio Anneo Seneca, Torino, Loesher,1955.

3 . عن علاقة سينيكا بالسياسة، راجع:

I. Lana, Seneca e la politica, Torino, 1970.

٤ عن المفاهيم الفلسفية لسينيكا أنظر هذه الدراسة الجادة:

G. Rosati, Seneca sulla lettera filosofica. Un genere letterario nel cammino verso la saggezza, in "Maia" 1, 1981.

٥ . لمزيد من التفاصيل عن علاقة سينيكا بالمسيحية و تأثيره في التراث المسيحي، راجع:

Maria Sordi, I rapporti personali di Seneca con i cristiani, in Seneca e i cristiani, Milano, 2001, p.113 sgg.

Giuseppe Scarpat Il pensiero religioso di Seneca e l'ambiente ebraico e cristiano, seconda edizione,Paideia editrice, Brescia 1983, pp. 113-141.

Michael Von Albrecht, Momenti della presenza di Seneca nella tradizione cristiana, Atti del convegno internazionale: Seneca e i cristiani, Università cattolica del S. Cuore. Biblioteca ambrosiana, Milano, 12-13-14 ottobre 1999.

6 Seneca, (Liber VIII, Epistola 70).

٧ . ينحدر جايوس لوكيليوس من أسرة ريفية بسيطة لكن اجتهاده و عمله الدءوب قد جعله يحقق ذاته و يصل إلي المناصب العليا، فكان نائب صقلية و قد خصص له سينيكا بعض أعماله كرسائله الأخلاقية إلي لوكيليوس ، و عمل عن الأمور الطبيعية.

8 Seneca, De providentia, I, 1

9 . أنظر:

A. Traina, La domanda più antica del mondo, Introduzione a Lucio Anneo Seneca. La provvidenza, Rizzoli, Milano 1997, pp. 7-33.

10 .الفلسفة الرواقية هي مدرسة فلسفية أسسها زينون ٢٠٠ ق.م ثم هذبها أتباعه وتنادي بان الحقيقة مادية تسودها قوة توجهها هي الله . وما دامت الطبيعة تسير وفق العقل فمن الحكمة أن يسير الإنسان وفق الطبيعة منصرفا عن ميل العواطف والأفكار التي تحيد عن جادة القانون الطبيعي وحرية الإنسان مرهونة بأدائه لواجبه في اقتفاء الطبيعة وقوانينها .وهي فلسفة عملية متسامية تؤمن بوحدة الوجود كما تؤمن بعالمية المواطن بعد أن وحدت كافة عناصر الفكر اليوناني وشكلت نظاما أخلاقيا ترتضيه الفئات المتمردة على العقائد القديمة المتوارثة . وكان زينون يعلم أتباعه في رواق فنسبت إليه الرواقية. وتتبني هذه الفلسفة على التسليم بحقيقة وصدق الاحساسات التي أثبتتها الفلسفة الارسطية أو بعبارة أخرى تسلم بان الإنسان يتلقى وعيه بزاته أولا وقبل كل شيء, مما يجوز معه القول بان الرواقية شأنها شأن الابيقورية قد نبعت من العالم الجديد الذي خلفه الاسكندر الأكبر ومن الشعور المتولد عن ادارك الإنسان بأنه ليس مجرد عنصر خامل في إطار المدينة وإنما هو شخصية منفردة بزاتها محتاج إلى استنباط قواعد جديدة لسلوكه من اجل بلوغ السعادة التي حرصت الرواقية في سبيلها على التمسك بالكمال.
راجع:
M. Pohlenz, La Stoa di un movimento spirituale, trad. It., La Nuova Italia, Firenze 1967.

11 . Seneca, De Providentia, I, 1

١٢ . إن العناية الإلهية في مفهومها التاريخي تكون عقلانية و هادفة و ملازمة للكون، أنظر:
Reale, Storia della filosofia antica, Milano 1976, III, pp. 369 sgg.
و عن القدر (النصيب) الشيء الحتمي المتعذر اجتنابه راجع سينيكا في: De prov. V, 7

١٣ Seneca, De prov. I, 4
من الملاحظ أن نتيجة البحث في أعمال سينيكا تشير إلي أن علم اللاهوت كان مدروسا جيدا و ليس فيه تردد و إنه ينفصل حقيقة عن العلوم الطبيعية، أنظر:
Seneca, i Dialoghi, a cura di A. Marastoni, Milano, Rusconi, pp. 66-7.

١٤ Seneca, De prov. II, 1-2

١٥ Seneca, De prov. II, 3 يتكرر المعني أيضا في مواضع أخري: De prov. II, 6; III,4; IV, 2; V, 1

١٦ Seneca, De prov.II, 4

17 Seneca, De prov. II, 6

18 Seneca, De prov. IV, 4

١٩ عن تفاصيل أكثر تتعلق بموضوع العناية الإلهية راجع:
M. Pohlenz, op. cit., pp.198-9.

20 Seneca, De prov. V, 1

٢١ يلاحظ في هذه الفقرة أن سينيكا يقدم الحل التقليدي المألوف الذي يطرحه المفكرون ، راجع:.Pohlenz, op. cit. I,198-9; 241 segg حيث يذكر أن الشر هو فقط الرذيلة، و الخير و هو فقط الفضيلة، و الأمور الباقية هي صغائر لا يعتد بها.

٢٢ يبين سينيكا هذا التجاذب الدائر بين الإنسان و الحياة مؤكدا أن الآلهة تعتني بكافة البشر و لكنها تخص بعضهم بعناية أكثر:
"Maior diis est universorum cura quam singulorum." (De prov. III, 1)
23 Seneca, De prov. VI, 6
24 Seneca, De prov. VI, 8
25 Seneca, De prov. VI, 7
٢٦ ديميتريوس الكلبي: فيلسوف يوناني ولد في أتيكا باليونان في القرن الأول الميلادي، و أنتقل إلي روما، و أصبح صديقا لسينيكا الذي أثني عليه مرات عديدة في أعماله، لكن نيرون نفاه في المرة الأولي، ثم نفاه الإمبراطور فيثاثتيانوس للمرة الثانية بسبب معارضته للمؤسسة الإمبراطورية. و كانت تعاليم هذا الفيلسوف تحض علي ازدراء العلوم، و تحبب في ممارسة الفضيلة التي كان يحث إليها.

27 Seneca, De prov. III, 3
28 Seneca, De prov. IV, 1
29 Seneca, De prov. IV, 7
30 Seneca, De prov., IV, 12
٣١ عن تلك العقيدة الأخلاقية لسينيكا راجع:
Marchesi, C., La dottrina morale di Seneca, Laterza, Roma-Bari, 1980.
٣٢ عن المعني اللغوي للصفات عند سينيكا و خاصة كلمة sapiens أنظر:
Francesca Aina, Riflessi "al negativo": gli aggettivi con prefisso in- nella lingua senecana, Roma, "Aricò quaderni", pdf (2004). P. 2.
٣٣ راجع :
Binni, W. La nuova poetica leopardiana, Firenze, 1984, pp. 119-123.
34 Leopardi, La Ginestra, vv. 297 sgg.
35 Ibid., vv. 78-86

٣٦ في هذه الأبيات يتوجه ليوباردي إلي العصر متهما الزمن بالتناقض و التضارب، فمن جانب يحلم بالحرية التي من أجلها حري بالبشر أن يشنوا المعارك، و من جانب أخر هناك الانشغال غير المجدي بالفكر، حيث أن العصر الذي يشير إليه الشاعر كان يعارض تلك التيارات الفلسفية المتصلة بذلك الفكر الحسي العقلاني الذي ينسب إليه الشاعر الفضل في تحرير البشر من بربرية العصور الوسطي، لأن هذا الفكر هو القادر لا شيء غيره علي ترسيخ حضارة عظيمة، و صالح لأن يكون مرشدا لأفضل أنواع المجتمعات.
فالدافع للتوجيه العقيم المتضارب للفكر في القرن الثامن عشر كان بالنسبة لليوباردي يكمن في الجبن الذي لا يقوي علي رؤية الحقيقة، و أيضا لا يستطيع قبول ذلك القدر الصعب أو الحالة المتدنية التي يصفها الشاعر بـ: "depresso loco", "aspra sorte" و إن تلك الحالة رسمتها الطبيعة للإنسان، و من ثم بسبب الجبن و عدم الشهامة أدار الزمن حينئذ (في القرن الثامن عشر) ظهره للعقيدة التي كانت تبين الحقيقة (أي المذهب التنويري) بينما كان ذلك العصر يولي واصفا هؤلاء الذين يتبعون الضوء الحقيقي للفلسفة بالجبن، و كان يعتبرهم عديمي الشهامة أو ربما يصفهم بالجنون.

٣٧ هذا تقريبا فعل منعكس مضاد فلا يبقي إلا شبح أو ظل للمذهب المسيحي الآفل، و لا نريد أن نقول المجتث، راجع:

K. Vossler, Nel centenario di Leopardi, 1937, pp. 8 segg.

٣٨ أنظر:

S. Timpanaro, Classicismo e Illuminismo dell'Ottocento italiano, Pisa, 1965, pp. 150 segg.

39 La Ginestra, vv. 111 segg.

40 La Ginestra, vv. 134 segg.

٤١ الأخطار هنا تسمي أخطار تبادلية لأنها أحيانا ما تلحق ببعضهم و أحيانا أخري تلحق بآخرين.

٤٢ راجع لمزيد من التفاصيل عن المذهب الاجتماعي في قصيدة "زهرة الصحراء" المرجع التالي:

Luigi Baldacci, Il male nell'ordine: scritti leopardiani, Rizzoli, Milano, 1998, pp. 145-148.

٤٣ . أنظر:

W. Binni, La poesia eroica di G. Leopardi, in "il Ponte" XVI 1960, PP. 1730 sgg.

٤٤ هذه الاستفهامات و التساؤلات المحيرة نلمسها في عمل أخر لليوباردي حيث يتساءل: ماذا تفعل أنت أيها القمر في السماء؟ ..... و أنا من أكون؟

Che fai tu luna in cielo?....
Ed io che sono?
(Canto notturno, vv. 1-6)

45 .أنظر:

Binni, W., La poesia eroica di G. Leopardi, in (Il Ponte), XVI, 1960, PP. 1730 sgg,